في جيبي

في الجزء الثاني من القرن الثامن عشر حمل السائح النموذجي معه وفي أسفاره مرآة غامقة (زجاج كلود)، وهي قطعة زجاجيّة محدّبة تشبه عدسة التصوير الفوتغرافي، ملوّنة بلون غامق متدرّج مما يجعلها تعكس صورة العالم الخارجيّ بمنظار مشوّه ضمن نطاق لونيّ محدّد. زجاج كلود كانت آلة لرؤية المحيط الخارجي بقدر ما سمحت به الموضة آنذاك، كان حديث المرء السائد عن الصور الأخاذة والرسم بألوان ليّنة ومشبّعة. إحدى متع المسافر كانت إيجاد أوجه الشبه بين الرسومات و الطبيعة المنظورة، ولكن لكي يُرى المنظر معكوسا في قطعة زجاج كلود يجب أن يدير المرء ظهره للمنظر نفسه، وحتى في ذلك الوقت كان يُمزح أن إدارة الظهر عن المنظر تعكس موقف السائح من الطبيعة. في ذلك الوقت كان السائح تقريباً وغالباً رجلاً، الرحلة كانت رحلة تعليميّة وفي أغلب الأحيان لشاب من النبلاء. المرأة التي تنطلق في مغامرة مشابهة تُعدّ المغامرة ضربة قاضية لسمعتها.

في نفس الحقبة الزمنيّة انطلق الرجال الأوربيون من مكتشفين وعلماء إلى العالم الواسع من أجل الوصف والتصنيف. وكان البصر والنظرة هما السائدان في مثل هذا العمل، وتلك النظرة كانت باحثة وهادفة وطبقيّة.

مئة سنة لاحقة ، أي في حوالي عام 1850، أصبحت السياحة في مصر في حركة دؤوبة. البلد مرغوب به لمناخه الحار والجاف الذي يبعد كل البعد عن مناخ أوربا الرطب البارد. بالموازاة مع الحالة الاقتصادية المتحسّنة للأوربيين تصبح حوافي العالم الخارجية، ومن مِنظار أوربيّ، أماكن سياحية مألوفة للمترفين في المجتمع. المسافر النموذجي والذي هو الآن ممكن أن يكون رجلا أو امرأة، يكون قد اشترى صوراً عن البلاد المقصودة قبل القيام بالرحلة. أما الأشخاص المثقفون فقد اقتنوا وبسرور صوراً لمكسيم دو شامب أو فرنسيس فيرث، مصورين محترفين كانا يستعملان آلات تصويرية ثقيلة ذات ألواح زجاجيّة مع فرقة من الحمّالين والمساعدين. وهم ركّزوا على الآثار الكبيرة، النخيل، النيل، وامرأة أو أخرى محجبة. ولكنّ المصورون في أغلب الأحيان لم يلتقطوا صورا لأناس محليين لأنها لا تجد رواجاً في بلدانهم. عام 1888 جاءت الكوداك بشعار "اضغط على الزر ونحن نقوم بالباقي". الاختراع الجديد هو بكرة الفيلم وأصبحت الكاميرا سهلة الاستعمال وبسعر متاح. وامتلاك الكاميرا صار ممكنا للعامة. الفيلسوف ولتر بنيامين قال مرة إن العالم ومن الآن ممكن أن يُختصر في بطاقة بريدية. من خلال صور المحترفين تعلم السائح النموذجي مسبقاً كيف وما الذي يريد تصويره. الرحلة كانت جولة لزيارة المعالم والصور تِذكارها.

يعتمد الرخاء الأوربي على الحدّاثة والاستعمارية. والمركزية الأوربية تسود: أوربا ترى نفسها مفتاح السعادة للعالم أجمعه ومقياسه الأوحد.

أكثر من مئة سنة لاحقة، عام 2012، أسافر من مدينة يوتبوري إلى الإسكندرية. الرحلة تُوصف بأنها إقامه مع الاحتمال بتجربةِ أو اكتشافِ شيء مغاير. يقال ان النظرة تحتاج الى أُفق واسع. عام 2012 يسافر السائح النموذجي الى نفس الاماكن ويصور نفس الاهرامات ونفس النخيل وايضا امرأة وأخرى محجبة. قبل الانطلاق بالسفر يقوم المسافر والذي يمكن أن يكون امرأة بمفردها أو رجل بمفرده في هذه الأيام، بشراء دليل سياحيّ ويعرف الشيء الذي يريد أن يراه ويجرّبه. هذا المسافر قد يكون مزودا أحيانا بالمعدات التصويرية الثقيلة ولكنه أيضا وفي أحيان كثيرة يحمل معه آلة تصوير صغيرة موجودة في هاتف محمول. وهو لا يرسل الآن الكثير من البطاقات البريدية وذلك لوجود إمكانيات إرسال صوره إلكترونيا ومباشرة إلى الأصدقاء والمعارف لمشاهدتها. وهذه الصور تذكار مرئي وليد اللحظة. الصور النمطية تصبح رموزا يُعاد تكرارها لانّ السياحة نوع من الاستهلاك ونحن نستهلك رموز التجارب المرغوب فيها. صوري تنخرط ضمن هذه التقاليد المترسخة منذ مئات السنين: هي تحتوي معالم أثرية وميلا إلى كل ما هو غريب ونادر، وإيجاد الناس في مثل هذه الصور شبه مستحيل. وبلا شك فإن النظرة الى الشيء وتصويره تعني السيطرة على ذلك الشيء ولكنها في الحين ذاته تخلق فرصة الانتماء. وبالنسبة لي فهو حق الانتماء إلى مكان بعيد جدا مليء بالنخيل والآثار وبعض الأصدقاء الجدد.

أوربا لم تعد كما كانت المقياس الأوحد في العالم. نظرتها الخارجية اليوم متعبة وخائفة من الخطأ، ولكنها مع ذلك تطلب أن ينظر إليها. الخوف من فقدان السيطرة ينتشر والنظرة الداخلية قاسية ومُروّضة.

في التاسع عشر من أيلول 2013 سافرت إلى إسكندرية مصر. كان معي في حقيبتي آلة تصوير وفي جيبي هاتف محمول.